

المعجمية العربية الحديثة بين ثراء التنظير وقلة التأليف والفاعلية.

أ/ بلال لعفيون.

أ.د/ عبد المجيد عيساني.

جامعة قاصدي مرباح - ورقلة

الملخص: يهدف هذا البحث إلى دراسة نسبة التوافق والتفارق بين الشقين النظري والتطبيقي للمعجمية العربية الحديثة؛ إذ الناظر إلى الجانب النظري منها يجده زاخراً بالدراسات والبحوث -العربية الأصيلة منها والمترجمة-، من نتاج أفراد وهيئات لغوية أو معجمية، موزعة في الكتب والمذكرات أو المقالات والمؤتمرات العلمية واللغوية (...)، لكن في مقابل هذا حين النظر إلى العمل الميداني أو شق المعجمية التطبيقي لا نجد الملموس من المعاجم والمشاريع المعبرة فعلاً عن الأفكار النظرية، حتى أننا نجد في مشاريع معجمية مقترحات وأفكار متعددة لإنجاز معجمي واحد، لكن الواقع يُبين بوضوح الغياب التام لما يُنظر له؟ وهذا ما يعمل على تبيان من خلال دراسة الجهود العربية المبذولة في سبيل وضع المعجم التاريخي للغة العربية.

الكلمات المفتاحية: الحداثة المعجمية، التنظير المعجمي، الصناعة المعجمية، المعجم التاريخي.

Summary:

The present research aims at studying the correlation and the contradiction between theory and practice in the modern Arab lexicology. On the one hand, once reviewing the literature, many theoretical studies and research works crop up; including originally Arab and translated ones, conducted by scholars, linguistic or lexical institutions in the form of books, theses, articles, scientific and linguistic conferences, etc. On the other hand, neither dictionaries nor projects that really bring theory into practice regarding the practical side of lexicology are found. In fact, several proposals and ideas to accomplish one dictionary were suggested. However, there is an utter lack of a reliable theory. The latter, then, is what this research attempts to identify and clarify through the study of the Arab efforts put to compile the historical dictionary of the Arab language.

Key words: Lexical modernity, lexical theorising, lexicography, historical dictionary.

إنَّ الغاية من هذه الدراسة هو الكشف عن حال المعاجم العربية الحديثة، أو بعبارة أخرى تبيان الصورة النمطية للمعجمية العربية في وقتنا هذا، وما يميزها من محاكاة ومُماثلة للمعاجم التراثية كأنها هروب من الواقع وما يزخر به من مستجدات في الثروة اللغوية. وكذا ابتعاد عن مجريات العصر بتجلياته، ونفور من منافسة الآخر في تطوراتها، كل هذه الأمور ساهمت بصورة أو بأخرى في زيادة الضبابية والهامية على باحثٍ ودارس المعجمية العربية الحديثة، وكأنَّها تمضي في مسار عديم الوجهة، خالٍ من المعالم، مما أدى بها إلى فقدان أي إنجاز أو مشروع معجمي يحمل مواصفات الحداثة، ما عدا تلك المحاولات في صورتها المحافظة، التي شهدتها العصر الحديث، وفي هذا كل التمييز للجهود والكفاءات.

وفي إطار الحديث عن العصرنة المعجمية¹، مثُلنا لمساعي التَّجديد والعصرنة بالمعجم التاريخي للغة العربية. هذا العمل الذي أخذ الوقت والجهد والمال، وتبنَّته هيئات ومؤسسات كبرى، لكنها فشلت في إخراجه للنور بمسحةٍ تُضاهي المعتمد في لغاتٍ أخرى (مثل: الإنجليزية، الألمانية، الإسبانية،...), لكن ما دام هناك توزع وتنوع في الجهود المبذولة في سبيل تحقيق هذا المطلب، مما يُشعل في أنفسنا بصيص أملٍ يُضيئه المجال الخصب والثري من إسهامات المستشرقين، والعرب، والأجانب الذين يحاولون إخراجه من خلال إثراء ودعم مشروع المعجم التاريخي للغة العربية.

وعلى ضوء المعطيات الموجودة انتقينا ثلاث عينات، ممثلة في:

- معجم أ. فيشر التاريخي.
- المعجم الكبير لمجمع اللغة العربية بمصر.
- مشروع الذخيرة اللغوية العربية. (أو مشروع العصر للغة والأمة العربية).

إنَّ الحديث عن هذه العينات يُؤدي بنا للغوص في تحليل المعطيات الخاصة بالمعجمية العربية الحديثة، حيث شاعت النظريات والاقتراحات والأفكار لعديد المشاريع المعجمية، لكن في المقابل نجد الوطن العربي في مجمله يفتقر إلى مؤسسات وهيئات بحثية تقوم بعبء التطبيق لهذه المقترحات، بل والمؤسسات الموجودة -على قلتها- هي دون المشاريع العصرية المرادة، أو عاجزة عن إنجازها.

مثل ماحدث مع "المعجم اللغوي التاريخي للغة العربية". فالمحاولات المبذولة في سبيل إخراجه ترجع إرصاصاتها الأولى إلى قرابة القرن من الزمن؛ حيث سُجلت أول المحاولات مع جهود المستشرق الألماني "أوجيست فيشر" في بداية القرن العشرين (العقد الثاني منه)، ليكون صاحب أول محاولة فردية لوضع معجم تاريخي للغة العربية، ثم كانت محاولة ثانية جماعية تبنتها هيئة علمية ممثلة في مجمع اللغة العربية المصري من خلال اشتغاله على وضع المعجم الكبير للغة العربية، لتتوالى بعد ذلك محاولات ومساعي متنوعة لوضع المعجم التاريخي على مستوى المجمع اللغوية العربية الأخرى، والهيئات المتخصصة كما كان مع جمعية المعجمية العربية التونسية، لتتوج هذه المحاولات والمقترحات الرامية لوضع معجم تاريخي بمشروع الذخيرة اللغوية العربية، الذي اقترحه المفكر واللغوي الجزائري "عبد الرحمن الحاج صالح" وتبنى وضعه في الأخير "المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم".

فموضوع النَّظري والتطبيقي في مجال المعجمية العربية دفعنا إليه كثرة ما نجده من كتابات ونقاشات عن عديد المشاريع والأعمال المعجمية العربية التي يُنظر لها وتناقش، بل وفي بعض الأحيان تكون كتابات ناقدة أو تقديم تعقيبات وإضافات لأمر لم تخرج فعليا للوجود في الساحة العربية، ونظرًا لكثرة التساؤلات وتراكمها في هذه النقطة جعلنا من المعجم التاريخي وهو أكبر مشروع عربي مثالا للوقوف على مدى التوافق والاختلاف بين ما يوجد من آراء وكتابات في الجانب النظري، وما هو موجود فعلا في الشق التطبيقي. لنلاحظ التباين بين النَّظري والتطبيقي في المعجمية العربية، من خلاله. محييين عن تساؤلات عدة أهمها:

هل المعجمية العربية تسير بضوابط منهجية وعملية ثابتة؟ أهناك تخطيط وتظير مُتجدد مع كل عصر، ومتنوع بتنوع الأعمال؟ أفعلا يوجد شق نظري وآخر تطبيقي لكل المشاريع المعجمية العربية؟ أفعلا كل ما يُنظر له يطبق ويجسد على أرض الواقع؟ هل المشاريع المعجمية الكبرى تحتاج إلى تظير وتخطيط متعدد ينجر عنه تدبب في التطبيق؟ أم إلى إحكام في التظير تعادلها دقة في التطبيق؟ وهل توجد فعلا أحداث معجمية عربية؟.

ولما نقول الأحداث المعجمية العربية، نعلم أن تجلياتها الكبرى تكون في المعاجم الإلكترونية والمتخصصة والتاريخية. فهل نجد تجسيدا تاماً لمظهر من مظاهرها؟ أتم فعلا إنجاز المعاجم العربية التاريخية؟ وهل توجد معاجم إلكترونية عربية؟ هل هناك معاجم مصطلحية متخصصة في ميادين العلم المختلفة على تنوعها؟ أم الأمر متوقف على التظير والأعمال غير المكتملة؟ (هل التظير المتعدد للمشروع الواحد يسهم في نجاحه أم يزي من خلط أوراقه؟ وما مدى التزام المعجمية العربية بقاعدة النظرية الواحدة للمشروع الواحد؟).

ثم المعاجم التي تتم في شكلها النهائي على تشهد الفاعلية التي عليها نظيراتها من المعاجم الأجنبية؟ هل هذه المعاجم تسد حاجيات المثقف والباحث العربي فيقبل عليها؟ أم يبقى متطلعا إلى مظان معجمية أخرى بسبب ما يكون من نقص؟.

هذه التساؤلات وغيرها نعمل على فكها وتوضيحها في ورقتنا البحثية هذه.

حري بنا ضبط وتحديد مفاهيم المصطلحات المعتمدة في تحليل فكرة العنوان المشتغل عليه، وهي:

1 - **الحادثة المعجمية**: مصطلح الحادثة يحيلنا إلى قراءات متنوعة، لكننا هنا نربط الحادثة بمجال البحث المعجمي، فحين نقول الحادثة المعجمية، نقصد بها الإنجازات المستحدثة في الدرس المعجمي العربي. وهي مجمل الأفكار والأعمال المعجمية الحديثة المضافة لرصيد المعجمية التراثية خصوصا الأنواع الجديدة من المعاجم مثل: معاجم المصطلحات، المعاجم العلمية المتخصصة، المعاجم المتعددة اللغات، المعاجم الإلكترونية، المعاجم التاريخية، والذخائر اللغوية. (الدراسة تركز بيان نصيب المعجمية العربية الحديثة من المعاجم التاريخية على مستوى التظير والتطبيق).

والحادثة المعجمية كرونولوجيا: تعرف من خلال المستجدات الكائنة في العربية بعد 'حملة نابليون على مصر' التي تعد معلمًا للتحديد ونقطة فصل بين التراث والحداثة، خصوصا وكونها الفترة التي منها كان تسجيل الظهور البارز والرسمي للطباعة في التأليف العربي، وعلى إثر تواجد الطباعة في الساحة العربية ثبت تسجيل تطورات عدة في مجالات الحياة الاجتماعية والعلمية واللغوية، أما فيما يخص الدرس المعجمي فكانت هناك، قضايا وإنجازات معجمية شهدت التواجد لأول مرة بعد تلك الفترة مثل: إخراج "معاجم المصطلحات"... إلخ.

2 - **التظير المعجمي**: يتمثل فيجانب التخطيط والتنظيم للمشاريع المعجمية قبل عملية الإنجاز والتأليف. والتظير المعجمي هو: النظريات المطروحة في الدرس المعجمي العام (العربي وغير العربي)، وكذا كل الأفكار والكتابات التي اقتضت على تقديم النظريات والأفكار من غير تطبيق وتجسيد فعلي وملموس لها بين المستعلمين الفعليين للغة والمعجم اللساني. فالنتظير المعجمي: هو الجانب الفكري المجرد للمعجمية. (ويُقابل في معناه الاصطلاح المعروف بعلم المعاجم).

3 - **التطبيق المعجمي**: هو الصناعة أو التأليف والإنجاز الفعلي الملموس للمشاريع المعجمية المخطط والمنظر لها. وبعبارة أخرى هو التجسيد الميداني للمعاجم في صورتها النهائية المختلفة، الورقية منها والإلكترونية.

وأیضا هو: التطبيق والاشتغال الفعلي على الثروة اللغوية من طرف المعجميين حين وضعهم المعاجم الفردية، أو من طرف الخبراء والمختصين المشتغلين على وضع وصناعة المعاجم المتنوعة بشقيها الإلكتروني والورقي في الهيئات والمؤسسات العلمية واللغوية القائمة على أمور العمل المعجمي. فالتطبيق المعجمي: هو الجانب المادي الملموس من المعجمية. (ويُقابل في معناه الاصطلاح المعروف بالصناعة المعجمية).

4 - **المعجم التاريخي:** ويعرّف بكونه: "المعجم الذي يرصد تطور الألفاظ اللغوية في علاقتها ببعضها البعض صرفياً ودلالياً. فيكون المعجم التاريخي للغة العربية بهذا التحديد هو المعجم الذي يتضمن ذاكرة كل لفظ من ألفاظ اللغة، تسجّل - حسب المتاح من المعلومات - تاريخ ظهور دلالاته الأولى، وتاريخ تحولاته الدلالية والصرفية ومكان ظهوره، ومستعمليه في تطوراتها إن أمكن، مع توثيق تلك "الذاكرة" بالنصوص التي تشهد على صحة المعلومات الواردة فيها"² وهناك من يُعرفه على أساس ما يدخل تحت تعريف "المعجم التاريخي للغة" من عناصر، فمن المكونات الأساسية. مصطلح "المعجم": (مدونة وترتيب وتعريف)، والجزء المتبقي من مكونات مصطلح "تاريخ"، ورغم أن مفهوم "التاريخ" نفسه ليس من المفاهيم المحددة بدقة بين أصحاب الاختصاص، إلا أن كل عملٍ حقّق الحد الأدنى من عناصر ذلك المفهوم، اعتُبر داخلاً تحت عنوان: المعجم التاريخي"³ والذي يُعنى ببيان التداول التاريخي للمادة المعجمية وما يطرأ عليها من تغيير عبر العصور المختلفة.

اللغة العربية ولغات العالم: حين ندرس مشاريع المعجمية العربية الحديثة، فإننا نقارنها في الموصافات بنظيراتها من اللغات العالمية الكبرى، وليس بباقي اللغات الأخرى التي هي دونها فالعالم: "يتنازع في الوقت الحالي نحو 2796 لغة، أضخمها من حيث عدد المتكلمين بها اللغة الصينية. إذ بها وحدها يتكلم ما يجاوز 600 مليون نسمة، ولكن العبرة بسعة انتشار اللغة في مناطق متباعدة، لا بكثرة المتكلمين بها، فالإنجليزية الآن تعدّ أوسع اللغات انتشاراً في العالم، ورغم أن المتكلمين بها لا يكاد يجاوز 280 مليوناً. وتعدّ اللغة العربية من حيث سعة انتشارها اللغة الثالثة، فلا تسبقها في هذا سوى الإنجليزية والفرنسية، إذ تسود العربية في شمال إفريقيا وفي السعودية واليمن وسوريا والأردن ولبنان والعراق، فوق ما لها من نفوذ في العالم الإسلامي، أي أنها تؤثر في ثقافة ما يقرب من 300 مليون من سكان العالم"⁴ فحين نقرأ هذه الإحصاءات يتبادر لنا أنّ العربية تنتصّر كبريات اللغات في التواجد في ساحة التواصل اللغوي العالمي (المرتبة الثالثة)، لكن بالعودة إلى الرصيد اللغوي والتأليف المعجمي نجد معطيات أخرى، فالإنجازات المعجمية العربية لاتؤهّلها لتكون في صدارة كبرى اللغات العالمية. والفارق واضح بين المعاجم التاريخية للغة العربية ونظيراتها من اللغة الإنجليزية واللغة الفرنسية.

الحداثة المعجمية العربية ونظيراتها الأجنبية: لما نكون بصدد المقارنة في قضية الحداثة أو العصرية بين المعجمية العربية ونظيراتها الأجنبية، تستوقفنا محطات عدة لضبط الفوارق. أهمها عامل الزمن وقضية التحكم والحرفية؛ إذ أن الحداثة التي يشتغل عليها في المعجمية العربية في الوقت الراهن تم الاشتغال عليها قبل قرن أو قرنين من الزمن في لغات أخرى، فمثلاً في وضع المعجم التاريخي نجد: "مع منزلة اللغة العربية، لم يوضع حتى يوم الناس هذا معجماً يؤرّخ حياة هذه اللغة، ويبين ما اعتري ألفاظها وتراكيبها من تغيير عبر العصور. وقد سبقتنا إلى هذا أمم أخرى، مع أن لغاتها لا تقارن بلغتنا في عراقتها وأصالتها.. ومنها الأمة الإنجليزية. فقد وضع معجم أكسفورد التاريخي للغة الإنجليزية الذي بدئ العمل به سنة 1859م وتم طبعه سنة 1928م، واستغرق العمل فيه سبعين سنة، وطبع بعد ذلك مرات عديدة.

ومنها أيضاً الأمة الفرنسية، فقد وضع معجم روبير التاريخي سنة 1992م. (Le Robert Dictionnaire Historique) بإشراف المعجمي "آلان ري" (Alain Rey)⁵ من خلال هذا كله يتبيّن لنا أنّ: المعجم التاريخي للغة الإنجليزية تم وضعه ولم يُشرع في وضع المعجم التاريخي للغة العربية بعد! في حين تم إنهاء المعجم التاريخي للغة الفرنسية واللغة العربية لم يخرج من معجمها سوى جزئين فقط!. وهذا يؤكد شساعة وكبر الهوة بين العمل المعجمي الغربي والعمل المعجمي العربي.

نقف الآن على عينات الدراسة وفق تسلسلها الزمني في الظهور بداية مع: "معجم أ. فيشر التاريخي". ثم "المعجم الكبير لمجمع اللغة العربية بمصر". "مشروع الذخيرة اللغوية العربية".

أ - **معجم أ. فيشر التاريخي:**

ويعرّف "أ. فيشر" معجمه التاريخي هذا بعدّه : "المعجم التاريخي للغة الآداب العربية حتى نهاية القرن الثالث هجري، أي حتى منتهى ما وصلت إليه اللغة العربية الفصحى من الكمال"⁶ أي هو المعجم الذي يتتبع تاريخ وتفصيل المفردات العربية من ظهورها والتغيرات التي طرأت عليها إلى غاية نهاية القرن الثالث للهجرة.

ومن بين دوافع وضعه ما وجده من نقص في تأليف هذا النوع من المعاجم، وهو ما نفهمه من قوله: "إن النقص المهم في المعجمات التي صنفها العرب يرجع إلى أنّ مصنفها ما كانوا يجمعون كل مفردات اللغة العربية، بل كانوا يجمعون الفصح منها فقط، ومنتهى الكمال لمعجم عصري أن يكون معجماً تاريخياً. ويجب أن يحوي المعجم التاريخي كلّ كلمة تُدوّل في اللغة. فإن جميع الكلمات المتداولة في لغة ما، لها حقوق متساوية فيها، وفي أن تعرض وتُستوضح أطوارها التاريخية في معجماتها، إذ أنها لا تعالج الناحية التاريخية لمفردات اللغة، بل تقتصر على إيضاح الاتجاه النموذجي لها"⁷ أي يريد أن يقوم بعملية مسح لكل مفردات اللغة العربية الفصحى المستعمل منها والشاذ كذلك، على أساس الحرص على تسجيل كلّ وكامل للمدونة اللغوية العربية، وتجاوز القواعد المستبعدة لإخراج الحوشي والنادر من مادة المعاجم العربية، ف"فيشر" يعتبر كلّ كلمة موجودة في اللغة لها حق في تبيان معناها ومستواها. أما التوظيف أو الإهمال فيكون من صلاحيات مستعمل اللغة، لا من صلاحيات المؤلف للمعجم.

هذا ونجد أنّ بداية العمل في المعجم، كانتمن اقتراح "فيشر" سنة 1908م بـ"باسل (Basel)" في اجتماع للمستشرقين الألمان. ولم يبدأ في المشروع إلا في سنة 1914م بعد تأسيس "معهد الأبحاث السكسونية في ليينسك" الذي عُين فيه مديراً للقسم العربي الإسلامي لمعهد أبحاث الاستشراق. وقد رأى اتمام العمل خلال سنة 1921 أو 1922م لكن الحرب العالمية حالت دون ذلك. وفي سنة 1936م استأنف العمل في المعجم بالتنسيق مع مجمع القاهرة إلى غاية وفاته.⁸ أم ما يخص نسبة التّقدم في التّأليف "فكان فيشر قد أعدّ مقدمة المعجم وجزءاً منه حتى آخر مادة (أبد) .. وقد نهض المجمع بطبعها عام 1967م، أمّا بقية الجذاذات التي جمعها فكان مصيرها إلى ركن قصي في مخزن للمرجعات في المجمع"⁹ توفي "فيشر" في عام 1949م وخمّد معه العمل بالمعجم، وتم طباعة ما عمله في المعجم، ممثلاً في طريقة المؤلف في العمل ومنهجه وبيان مراجعه، مع المقدمة والجزء الأول منه، حتى آخر مادة "أبد".¹⁰

ويمكن القول عن معجم "فيشر" أنه لم يُتم وضع سوى أقل من ربع مادة الباب الأول للمعجم الذي بدأه، وهو باب الهمزة؛ ذلك أن نشاطه خلال (35 سنة) ثلاثة عقود ونصف من الزمن (من سنة 1914م إلى 1949م)، لم يتجاوز فيها نسبة 05 % من الإنجاز الكلي للمشروع. وعليه يمكننا القول إنّ: الشقّ النظري للمعجم تمّ واكتمل¹¹ في حين الشقّ التطبيقي لم يبلغ نسبة خمسة بالمئة.

ب المعجم الكبير: وجاء في تعريفه:

"المعجم الكبير للغة العربية يُعمل في وضعه على ضبط تاريخ الكلمات من حيث نشأتها وأصولها واستعمالها في النصوص المختلفة"¹² وقد سُمي بالمعجم الكبير نظراً لموقعه بين المعاجم الثلاثة التي سطرها مجمع اللغة العربية المصري (المعجم الوجيز والمعجم الوسيط والمعجم الكبير)، لكن مضمونه وآلية العمل فيه، هي الآليات المتبعة في إعداد المعجم التاريخي.

"يعد المعجم الكبير الذي بدأ مجمع اللغة العربية في القاهرة بالتحضير له في الخمسينيات الميلادية، ثم صدر أول أجزاءه سنة 1970م أهم عمل معجمي لغوي شامل تقوم به مؤسسة علمية في البلاد العربية. ومنذ ذلك الحين صدرت من المعجم خمسة أجزاء آخرها ضم حرف الحاء الذي نشره المجمع سنة 2000م"¹³ من خلال هذا الطرح نفهم أنّ المجمع قضى قرابة العشرين سنة في التنظيم والتخطيط وضبط آليات العمل في المعجم من جهة وتأليف الجزء الأول منه. 'من منتصف القرن العشرين إلى غاية 1970م). ف"المجمع أمضى دورات متعاقبة في وضع المنهج الدقيق لتأليف معاجمه اللغوية، (...) وكان قد

توقف مبكرا "معجم فيشر التاريخي"، ثم ظهر جزء من "المعجم الكبير".¹⁴ التوقف كان مع وفاة فيشر سنة: 1949م والمعجم الكبير كان بعد ذلك مباشرة في خمسينيات القرن نفسه.

و "لا يزال موضوع المعجم التاريخي مجرد فكرة تثار من حين لآخر، ويحتاجُ لضرورة تنفيذها بأنها من أهداف المجمع الأول، وأنَّ قانونه الأساسي قد نصَّ عليها".¹⁵ المعجم التاريخي للعربية كان في تبني المجمع له خلاف منهم من قال بإنشاء معجم يؤرخ لمفردات اللغة العربية ككل، ومنهم من قال بإكمال المشروع الذي بدأه فيشر. لكن وبسبب المرحلة القصيرة التي عني بها معجمه (إلى أواخر القرن الثالث هجري). تقرر وضع : "معجم واسع يعول فيه أولاً بالذات على جهود أصحاب المعاجم السابقين، وإذا كانوا قد واقفوا باستشهادهم عند العصر الأموي، فمن الواجب أن نخطو خطوات أخرى ونتبع الأدب العربي في شتى مراحله، ونضيف إلى معجم اليوم ما جدَّ من لفظ وما ابتكر من مصطلح، فننتدرك ما فات علماء اللغة المتقدمين ونكمل ما نقصهم. ويكفي هذا المعجم تجديد أنه سيوضع بلغة العصر وروح العصر، وسيجعل من الأدب العربي كلا مرتبط بالأجزاء وسلسلة متصلة الحلقات؟"¹⁶ هنا يتبين لنا أن جهود المجمع تعمل على توسيع دائرة المادة المعجمية للمعجم الكبير لتشمل كامل مراحل اللغة العربية حتى الوقت الحال، لكن ومع ذلك يتبين من القول التركيز على الأدب دون المصطلحات، ودون رصيد اللغة العلمية والتقنية المستحدثة. ولعل سبب فشل المعجم العربي هو الاهتمام بالتراث الأدبي على حساب المحتوى العلمي والتقني في فروع المعرفة المختلفة، فنحن نعيش في عصر يحتكم إلى العلمية والموضوعية أكثر منه للأدب والفن، وعلينا أن نجمع في معاجمنا مادة تعكس روح العصر ولغته العلمية، لا لغة أدبية لا تمس إلا شق قليل منه.

المعجم الكبير ونسبة الإنجاز :

رغم كون المعجم صادراً عن هيئة مختصة، باشرت العمل فيه منتصف القرن العشرين (حوالي 1950م) وطبع أول جزء ممثلاً في باب الباء سنة 1970م وآخر أجزائه هو الجزء الثامن الخاص بباب الذال سنة 2008م؛ أي تم إنجاز ثمانية أجزاء شاملة لتسعة حروف من حروف الألفبائية العربية.

أي ما يعادل نسبة إنجاز تساوي: 32.14%. خلال مدة تقارب 58 سنة. من بداية الاشتغال إلى غاية طباعة العدد الثامن والأخير سنة 2008م. وهذا بمعدل تأليف يساوي باب واحد كل ست سنوات ونصف تقريباً. (6.44).

فالمعجم الكبير "صدر أول أجزائه سنة 1970م (...) ومنذ ذلك الحين صدر من المعجم خمسة أجزاء آخرها ضم حرف الحاء الذي نشره المجمع سنة 2000م"¹⁷ ليكون بعدها الجزء السادس والجزء السابع الخاصين بحرفي الخاء والذال سنة 2004، وبعدهما الجزء الثامن الخاص بحرف الذال سنة 2008م.¹⁸

بالنظر للشقين النظري والتطبيقي في هذا المعجم، نجد دائماً النقص مسجلاً على مستوى التطبيق الذي لم يكتمل أو بالأحرى لم يبلغ النصف من التأليف رغم مدة تجاوزت النصف قرن من الزمن.

ونافلة القول أنَّ هذا المشروع المعجمي الكبير، الذي يُعمل فيه بالتأصيل والتتبع التاريخي للمفردات العربية وتطوراتها على مستوى الشكل والمعنى، بدأت أشغاله في الخمسينيات من القرن العشرين، وخلال مدة تجاوزت نصف قرن تم إخراج ثمانية أجزاء فقط من مشروع المعجم؛ أي بمعدل جزء في ست سنوات ونصف، وبالنظر إلا ما تبقى من حروف الهجاء العربية، نجد (19) تسعة عشر حرفاً لم يتم بعد الاشتغال عليها في وضع المادة المعجمية، ولو كان كل جزء من المعجم مخصص لحرف من حروف الهجاء العربية، فبحساب نفس وتيرة العمل في الأجزاء المتبقية، فالمعجم لن يكتمل إلى بعد قرن وربع القرن من تاريخ صدور الجزء الثامن!! وما طول المدة بالشيء الإيجابي الذي يجعل فريق العمل يتحمس لإتمام المشروع، ولا القارئ

العربي يبقى يتقرب العمل، نظرا لاستحالة ضبطه وخروجه في شكله النهائي في جبل معين، كما هو بين من وتيرة السير في إنجازهِ. وهذا ما يؤدي إلى التوجه لمعاجم بديلة؟.

ورغم هذا يبقى مشروع المعجم الكبير من المشاريع المعجمية الكبيرة التي فتحت الباب لوضع المعاجم العربية التاريخية والإلكترونية فيما بعد. لكنه في الوقت ذاته سجل نقطة سلبية للمعجمية العربية إذ له قرابة القرن (65 سنة) ولم يشهد النور والخروج الفعلي، بل أصبح من الأمثلة على المعاجم المبتورة غير المكتملة رغم الحاجة إليها والطلب الكبير لها.

ج- الذخيرة اللغوية: أو بالأحرى هو مشروع القرن للمعجمية العربية، وهو المعجم العصري الشامل المنشود لجمع كُليّ لرصيد الثروة اللغوية العربية، وبثها في عالم النّت والحوسبة. أو كما يقول عنها صاحب الفكرة "عبد الرحمن حاج صالح" هي: "مدونة يترأى فيها بوضوح الاستعمال الحقيقي للغة والمصطلحات. ووسيلة اتصال وتفاعل ثانيا مع جماهير المستعملين للمصطلحات"¹⁹ ويقول معرّفا لها: "إن ما أسميناه بمشروع الذخيرة اللغوية العربية يرمي إلى ضغط بنك حاسوبي من النصوص القديمة والحديثة بالعربية الفصحى ويفترق عن البنوك المتواجدة بـ:

- 1 - الشمولية الكاملة (في المكان والزمان)
- 2 - اندماج المعطيات النصية -كأنه نصّ واحد- حاسوبيا ومرتبّة ومصنفة بحسب العصور وفنون المعرفة.
- 3 - كونه آليا وعالميا إذ سيكون له موقع في شبكة الأنترنت.
- 4 - يمثل الاستعمال الحقيقي للغة العربية قديما وحديثا وبذلك يكون موثقا للتوثيق الكامل ويضاف إلى ذلك ما لم يدخل في الاستعمال ولم يشع أو ترك منذ زمان مما هو موجود في المعاجم القديمة والحديثة أو في قوائم المصطلحات المجمعة.
- 5 - سرعة استجابة هذا البنك لأي سؤال.

فهذا البنك الآلي الشامل لا يمكن أن يستغني عنه في هذا الزمان الذي نعيش فيه وعلى أساسه وبالرجوع إليه وبالإستقاء منه لكل المعلومات اللغوية الخاصة بالاستعمال الحقيقي للعربية خاصة. يمكن أن تحرّر الكثير من الدراسات وتؤلف الأنواع الكثيرة من المعاجم"²⁰

وقد كان أول طرح لهذا المشروع سنة 1988م. "مشروع الذخيرة اللغوية العربية هو مشروع عربي عرض لأول مرة، على المجلس التنفيذي للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم. في ديسمبر 1988م فوافق أعضاؤه على تبنيه."²¹ وإلى غاية اليوم لم يظهر نتاج ملموس من ثمرات الاشتغال على المشروع.

أي حين نسقط الدراسة للقياس على المحورين النظري والتطبيقي لحساب معدل التقدم في المشروع، نجد الشق التطبيق لم يحقق أي نسبة بمعدل (00) صفر في الإنجاز إلى غاية الوقت الراهن. أي أنّ مشروع الذخيرة اللغوية العربية وخلال 28 سنة من الوجود لم يصل مستعمل اللغة منه شيء.

وخلاصة الدراسة لمعطيات العينات الثلاثة يمكن القول عنها:

- أول اشتغال على المعجم التاريخي كان من طرف المستشرق الألماني "أ. فيشر" في سنة متقدمة 1914م، ورغم قلة المعدات التكنولوجية، وقلة الطاقم العامل في المشروع، وغرابة رئيسه عن البيئة العربية إلى أنه وضع أرضية نظرية لتأليف المعجم التاريخي العربي. وقَدّم جزءا من باب. ويبقى المحاولة الفردية الوحيدة في هذا المجال.

- أم المعجم الكبير للمجمع المصري، فقد قدم طرحا أوسع وأكثر شمولية من سابقه من حيث زمن المعالجة للمادة المعجمية، وكذا المدونات والمستويات اللغوية المشتغل عليها، وبالتالي فهذا المشروع يمثل العمل المؤسساتي الأول من نوعه لوضع معجم تاريخي باللغة العربية.

- أم مشروع الذخيرة اللغوية: فلعل ضخامة المشروع واعتماده على الإعداد الآلي والتقني هو ما يزيد من طول مدة الإنجاز لأن المعالجة تكون لكل النصوص اللغوية العربية، وأن الظهور لهذا المشروع يكون مباشرة بصورة كلية، وليس بأجزاء يمكن إطلاقها بين المرة والأخرى.

وعلى العموم فالمعاجم كلها تقوم على أساسين: أحدهما فني والآخر إداري، إذ لابد من رسم خطة محكمة تُبين المصادر التي يرجع إليها، وتفرق بين المهمل والمستعمل من الكلمات وبين الأصلي والمجازي من المعاني، وتحدد ما يؤخذ من المصطلحات العلمية والألفاظ الحديثة، وتبرز ما استحدث من المفردات والتراكيب في مختلف العصور اللغوية وتشرح كيفية البحث عن أصول الكلمات ومشتقاتها وطريقة ترتيبها.

والمعاجم الكبرى دائما تتطلب جهودا متضافرة وعملا مستمرا في عشرات السنين، ولا سبيل لتجميع هذه الجهود وتنسيقها واستمرار العمل ودوامه إلا بتكوين هيئة إدارية خاصة تشرف عليه وتتولاه حتى النهاية.²² هذا الكلام يدعم موقفنا القائل بأن العمل المعجم العربي ينقصه إطارات مفكرة وخبراء يرسمون المسيرة والاستراتيجية التي تسير عليها المعجمية العربية، أو الخطط الاستراتيجية للمشاريع والأعمال المعجمية المراد إنشاؤها. لأن الشلل الذي يُصيب المشاريع المعجمية الكبرى المسطرة يكون في الغالب نتيجة عدم وضوح الفكرة، أو لغياب الضبط الجيد لآليات العمل.

اختلاف المعاجم التاريخية: اختيارنا لمدونات مختلفة، هدفنا منه عكس التطور المسجل في المعاجم التاريخية ورؤيتها، ففي الأول كان معجم "فيشر" يتحرى مفردات اللغة إلى غاية القرن الثالث هجري، ثم عمل المعجم الكبير إلى مدفنة المادة المعجمية إلى غاية العصر الحديث، بدلا من القرن الثالث للهجرة، ليأتي مشروع الذخيرة العربية محاولة لجرد كل مفردات اللغة في جميع مستوياتها واستعمالاتها. إذ "لابد من تأكيد معلومة واضحة، وهي أنه لا توجدُ وصفاً جاهزة أو طريقة استعمال واحدة صالحة في كل حال لإنجاز أي قاموس تاريخي لأية لغة من اللغات. والسبب بسيط وواضح أنه لا يوجد هناك نوع واحد من القواميس التاريخية أو صيغة موحدة لها، وإنما هي أنواع يختلف بعضها عن بعض في أمور كثيرة: في حجم مدونتها وكيفية تكوينها ومصادرها وعدد مداخلها، وهي نوعية الألفاظ والمداخل المؤرخ لها، وفي الفترة الزمانية المراد التأريخ لألفاظها، وتعريفها وترتيبها، ونوع المعلومات المطلوبة وقدرها وطريقة صياغتها وتنسيقها"²³ لكن رغم اختلاف المعاجم التاريخية وتنوعها، فإن عدم تواجدها ليس مبررا، فالغياب التام للمعجم التاريخي يعكس الفشل في الإنجاز وعدم التمكن من ضبط اللغة، في حين التواجد المتعدد للمعاجم التاريخية باختلاف خصوصياتها وتوجهاتها (تنظيم، ترتيب، نوع المادة، مرحلتها، مستوياتها...) يعكس الثراء اللغوي والإحاطة والتكمن المعجمي من التأليف.

- نخلص إلى القول بأن الحداثة المعجمية دخلت للمعجمية العربية في مجال التنظير، لكن كأثر أو كإنجاز معجمي ملموس لم تظهر بعض، إذ لم تسجل أعمال معجمية عصرية، توازي ما هو موجود من مشاريع معجمية للغات الكبرى. فالحداثة المعجمية موجودة نظريا مفقودة تطبيقيا.

- فأول محاولة لمعجم تاريخي للغة العربية كانت من طرف معجمي غير عربي، وهو الباحث الألماني "أوجست فيشر"؛ وهذا له من الدلالات والقراءات ما يجعل منا نتساءل عن أمر العربية والقائمين عليها، أهم بنوها أم المستشرقون!.

- كما أن مجمع اللغة العربية ببيئته وإطارته المختصة وطاقاته عاجز على تحريك وتيرة العمل في المعجم التاريخي، فما هي الهيئة الخاصة التي يسند لها إنجاز المشروع.

- وإذا كان المعجم التاريخي لم يتمكن منه، هل يتمكن من الذخيرة اللغوية العربية التي هي مرحلة تالية، وخطوة أعلا.
- وأخيراً: إننا قلّة القليلة من الأعمال فقط هي التي تشهد الوجود الفعلي. وبعد هذا الوجود تكون مرحلة تصفية ثانية ممثلة في الاستعمال والتداول، فيقلّ العدد بدرجة جدّ كبيرة إذا احتكنا إلى قيمة الأعمال بما تحتويه من لغة ومادة عصرية أو من تداول علمي أكاديمي لها.

الإحالات والهوامش:

- ¹ قولنا بمصطلح العصرية، ليس من باب التمييز بينه وبين اصطلاح الحداثة، وإنما بالمعنى الواسع لكل منهما؛ فالعصرية تمثل فترة وعصر الجيل الأخير، وهي في دارستنا هذه مُضمّنة في فترة الحداثة، باعتبار هذه الأخيرة الفترة الممتدة من زمن "حملة نابليون" على مصر، واستحداث الطباعة إلى وقتنا. فالحداثة تشمل الجديد والمستحدث في المعجمية العربية من فترة الحملة ودخول الطباعة إلى وقتنا الراهن، مروراً بكل العصور والأجيال، على اعتبار العصر يمثل مدة تعمير جيل في فترة عطائه من 25 إلى 30 سنة.
- ² عز الدين البوشيخي: بناء المعجم التاريخي للغة العربية واقتضاءاته النظرية، المعجمية العربية قضايا وآفاق، سلسلة المعرفة اللسانية، ج2، ط1، 2014، ص44
- ³ ينظر - عبد العلي الودغيري: نحو خطة لإنجاز القاموس العربي التاريخي في ضوء التجربة الفرنسية، مجلة اللسان العربي، مكتب تنسيق التعريب، الرباط، المملكة المغربية، ع 74، 2014، ص16
- ⁴ إبراهيم أنيس: اللغة بين القومية والعالمية، دار المعارف، مصر، ص298-299
- ⁵ إحسان النص: مشروع المعجم التاريخي للغة العربية مسيرة وتاريخ، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، مج 82، ج01، ص1-2
- ⁶ أ. فيشر: المعجم اللغوي التاريخي - القسم الأول، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، مجمع اللغة العربية، القاهرة، ط1، 1967، ص25
- ⁷ المصدر نفسه، ص07
- ⁸ المصدر نفسه، ص29-31
- ⁹ محمد حسن عبد العزيز: المعجم التاريخي للغة العربية وثائق ونماذج، دار السلام، مصر - القاهرة، ط1، 2008، ص400
- ¹⁰ ينظر - المرجع نفسه، ص34
- ¹¹ نقول الشق النظري اكتمل على أساس التسلسل المنهجي والمنطقي للأعمال والمشاريع؛ أنه لا يُشرع في التطبيق إلى إذا كان التنظير كامل وواضح.
- ¹² قرارات المجمع، مجلة مجمع اللغة العربية، ع7، 1953، ص177
- ¹³ أحمد بن محمد الضبيبي: الاستشهاد بشعر المولدين والمعاصرين في المعجم الكبير، مجلة مجمع اللغة العربية الجزائري، ع9، 2009، ص29
- ¹⁴ شوقي ضيف: مجمع اللغة العربية في خمسين عاماً، مجمع اللغة العربية، مصر، ط1، 1984، ص148
- ¹⁵ إبراهيم مذكور: قرارات المجمع، مجلة مجمع اللغة العربية، ع7، 1953، ص179
- ¹⁶ المرجع نفسه، ص180

¹⁷ أحمد بن محمد الضبيب: الاستشهاد بشعر المولدين والمعاصرين في المعجم الكبير، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، المجلد 78، جزء 4، ص1059

¹⁸ ينظر - طبقات الجزء السادس والسابع والثامن، مجمع اللغة العربية، الإدارة العامة للمعجمات وإحياء التراث.

¹⁹ عبد الرحمن الحاج صالح: الذخيرة العربية ودورها في شيوع المصطلحات وتوحيدها، مجلة مجمع اللغة العربية الجزائري، ع18، 2013، ص16

²⁰ عبد الرحمن الحاج صالح: المعجم العربي والاستعمال الحقيقي للغة العربية، مجلة مجمع اللغة العربية الجزائري، ع1، 2005، ص19-20

²¹ ينظر الرابط:

http://www.marefa.org/index.php/%D9%85%D8%B4%D8%B1%D9%88%D8%B9_%D8%A7%D9%84%D8%B0%D8%AE%D9%8A%D8%B1%

[D8%A9_%D8%A7%D9%84%D8%B9%D8%B1%D8%A8%D9%8A%D8%A9#.D8.A7.D9.84.D9.81.D9.83.D8.B1.D8.A9](http://www.marefa.org/index.php/%D9%85%D8%B4%D8%B1%D9%88%D8%B9_%D8%A7%D9%84%D8%B0%D8%AE%D9%8A%D8%B1%D8%A9_%D8%A7%D9%84%D8%B9%D8%B1%D8%A8%D9%8A%D8%A9#.D8.A7.D9.84.D9.81.D9.83.D8.B1.D8.A9)

²² إبراهيم مذكور: قرارات المجمع، مجلة مجمع اللغة العربية، ع7، 1953، ص179-180

²³ عبد العلي الودغيري: نحو خطة لإنجاز القاموس العربي التاريخي في ضوء التجربة الفرنسية، مجلة اللسان العربي، مكتب تنسيق التعريب، الرباط، المملكة المغربية، ع74، 2014، ص15